DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

رسائل الرّدود المسكتة في الخطاب العربيّ القديم (ردود بهلول المجنون نموذجاً)

د. فتح الرّحمن محمّد أحمد الجعليّ
أستاذ الأدب والنقد المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، كليّة اللّغة العربيّة والدّراسات الاجتماعيّة، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: ahedfath50@yahoo.com

الملخص

تناول البحث رسائل الرّدود المسكتة في الخطاب العربيّ القديم، وما جاء منها في ردود (بهلول المجنون) أحد عقلاء المجانين الذين عرفوا بهذه الرّدود ووظفوها في رسائلهم الاجتماعيّة، وقد هدف إلى إظهار مغازيها، والقوالب الأدبيّة التي حملتها في العصور الأدبيّة القديمة، ثمّ النّظر إلى نموذج لها من خلال ردود (بهلول المجنون)؛ لبعدها الأدبيّ الطّريف، ومضمونها ذي الرّسائل الاجتماعيّة المختلفة.

اتخذ البحث منهجًا وصفيًّا تحليليًّا، عالج النّصوص النّثريّة والشّعريّة وفق سياقاتها، منطلقاً من المنهج الاجتماعي، ومستعينا بالمنهج التاريخي؛ لحاجة مثل هذه البحوث للمنهجين.

خلص الباحث إلى أنّ الرّدود المسكتة من فنون الكلام ذات المكانة عند العرب؛ ولذا اقترنت عندهم بمميزات موحيّة بالذّكاء، مثل: البديهة، والإفحام، والقطع، وأتت في مقامات مختلفة مثل: النّقد الأدبيّ، والتّنافس الاجتماعيّ، و للتخلص من مواقف حرجة ، وغير ذلك، وقد ظهرت في قوالب عديدة مثل: الطّرفة، والحكمة، والتّلطف، وهي من الوسائل التي استخدمها (بهلول المجنون) في رسائله المتمثّلة في: النّقد السّياسيّ، والنّقد الاجتماعيّ، والوعظ الدينيّ، والسّخريّة من الأحداث، والتّواصل الطّريف، وكانت تظهر عنده بعد تهيئة يقصدها ويُعدّ لها، أو تُعدّ له، وقد كانت مؤثّرة في مجتمعه، إذ خاطب فئاته المختلفة من العوام وحتى الخلفاء.

أوصى الباحث بدراسة الرّدود المسكتة في الخطاب العربيّ الحديث، فهي من مكملات هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الردود، المسكتة، الخطاب، القديم، بهلول.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

Silent Response Messages in Ancient Arabic Discourse
(The responses of the crazy Bahloul as an example)

Dr. Fath Al-Rahman Muhammad Ahmad Al-Jaali
Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language and Literature , College of Arabic Language and Social Studies, Qassim University, Saudi Arabia
Email: ahefath50@yahoo.com

ABSTRACT

This study reviews the messages of potent responses in the ancient Arabic speech, and what were found among them in the responses of (Bahloul Al-Magnun), one of the madmen sane who knew these responses and applied them with their social messages. These responses aimed to show their meanings, and the literary styles were used in those ancient literary times, then searching for a model of them. Through the responses of (Bahloul Al-Magnun), which were mentioned in Al- Nisaburi's book (The Minds of the Insane); Because of their funny literary view, the different contents and their social messages.

The study used a descriptive analytical approach, treating both prose and poetic texts according to their contexts، starting from the social method, and using the historical method; For the need for such research methodologies.

It concluded that potent responses are among the respected literary speech of Arabs; Therefore, that they associated with features suggestive of intelligence, such as: intuition, potent, and decisive. These kinds of responses were found in different places such as: literary criticism, social competition, getting rid of critical situations, and so on. Among the means used by Bahloul Al- Magnun in his letters of political criticism, social criticism, religious preaching, irony of events, and funny communication, and they appeared to him after a preparation intended and prepared for them, and they were influential in his society, as he addressed different groups from commoners and even caliphs.

The study recommended that studying the potent responses in modern Arabic speech, because they are a supplementary part of this research.

Keywords: responses, potent, discourse, old, Bahloul.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

مقدّمة:

حُظي الخطاب الأدبيّ عند العرب باهتمام الدارسين والنّقاد؛ لما يمثّله من أهمية في الرّسالة الأدبيّة، وقد دُرس هذا الخطاب من نواح عديدة، لكنّ الباحث في هذا الموضوع يلاحظ أنّ (الرّدود) تحتاج لكثير من الدراسات خاصة (الرّدود المسكتة) التي تمثّل فنًا له سماته الأدبية المميّزة ذات البعد الطّريف؛ لذا جاء هذا البحث هادفًا إلى: دراستها، وسبر غورها، وإظهار مغازيها والقوالب الأدبيّة التي حملتها في العصور الأدبيّة القديمة، ثمّ النّظر إلى نموذج لها من خلال ردود بهلول المجنون؛ لبعدها الأدبيّ الطّريف، ومضمونها ذي الرّسائل الاجتماعيّة المختلفة؛ فشخصيّة بهلول لها بعد أشبه بالبعد (الدّرامي)، فيها غرابة لافتة وجاذبة تقوّي من إظهار الرّسائل الاجتماعيّة الأدبيّة فيها.

اتخذ الباحث لهذا الموضوع منهجًا بحثيا وصفيًا تحليليًا يعالج النّص في سياق الحدث حسب ما يحتاجه من أدوات، ذلكم أنّ هذه الرّدود تتحرك بين الشّعر والنّثر في صور مختلفة، منطلقا من المنهج الاجتماعي، ومستعينا بالمنهج التاريخي؛ لحاجة مثل هذه البحوث للمنهجين.

تأتي أهميّة هذا البحث من كونه يخرج عن النّمط المكتفي بالرواية الذي شاع في التأليف فيه، إلى تصنيف النّصوص وتحليلها ووضعها في قوالب مناسبة لها توضّح مغازيها، ما يمكّن من فهم شواهدها في سياقات ميسرة، ويوفّر مادة متماسكة مجموعة في سفر واحد، توضّح قوالبها ورسائلها، كما أنّه ينظر للموضوع من خلال شخصيّة خاصّة من مجتمع خاص يحتاج لدراسات تعالج أدبه، فضلا عن كون هذه الشّخصيّة تصلح نموذجًا للرّدود المسكتة في عصر مهم من العصور الأدبيّة العربيّة القديمة.

وقد تساءل الباحث:

- ما موقع الرّدود المسكتة من الخطاب العربيّ القديم؟
- كيف عبّر العرب عن هذا الفن؟
- ما الرّسائل التي تحملها الرّدود المسكتة؟
- كيف عبّر بهلول المجنون عن بعض رسائله الاجتماعيّة من خلال الرّدود المسكتة؟

فافترض وجودها في الخطاب العربيّ القديم في قوالب تحقق رسائل مهمّة، في أسلوب موجز بليغ، وتعطي إحساسًا بالحسم وربّما النّصر، وقد عبر العرب عنها من خلال شعرهم ونثرهم في شكل تعليقات عابرة، ثمّ تطوروا في ذلك، فكانت تأتي على شكل ردود مكتوبة في العصور التي مارسوا فيها الكتابة، فحمّلوها رسائلهم الاجتماعيّة، والسياسيّة، والأدبيّة، كما افترض أنّ ردود بهلول المجنون تمثّلها، وقد كانت مما يحقق رسائله التي يريدها، تلك التي قدّر أنّها ممّا يحتاج إليه مجتمعه آنذاك.

لم يقف الباحث على موضوع سابق يشبه موضوعه بدرجة تحول دون تناوله، بينما وقف على دراسات سابقة تناولت الردود المسكتة من جوانب مختلفة، ولكنّها لم تعالج ما عناه هذا البحث، منها – على سبيل المثال -:

– (**الأجوبة المسكتة في الأدب العربي القديم**)، وهذا عنوان لبحث علمي نشره الباحث الأستاذ محمد قدوري، التابع لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة، منشور بمجلة (الحقيقة) العدد (1) مجلد (17) سنة 2018م

هذه الدراسة على الرغم من تقارب عنوانها مع عنوان بحثي، نجد اختلافا كبيرا بينهما، حيث تناولت الدراسة المذكورة الموضوع من الجوانب الآتية:

(مفهوم الشعر، تعدد المصطلحات، مصطلحات النثر، سمات الجواب المسكت، الأجوبة المسكتة في المدونة النقدية).

– (**الأجوبة المسكتة في نثر بلاغات النساء ل" طيفور الخراساني"- دراسة بلاغية**)، إعداد الدكتورة شيماء عبد الرحيم توفيق، منشورة بمجلة اللّغة العربيّة بالمنوفية، العدد السادس والثلاثين، يونيو 2021م.

هذه الدراسة - كما يتضح من عنوانها – متعلقة بالجانب البلاغي في الكتاب المذكور، وهذا تناول مختلف عن تناول هذا البحث.

قُسّم البحث إلى مبحثين، وخاتمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: الردود في الخطاب العربيّ القديم، حيث يعالج هذا المبحث المفهومات المتعلّقة بالموضوع والقوالب التي أتى عليها مدّعمة بالشّاهد، فهو مبحث مهم لمعرفة عمق هذا الموضوع في تراثنا العربيّ القديم.

المبحث الثّاني: الرّدود المسكتة في قصص بهلول المجنون، وفي هذا المبحث يعالج الموضوع بتفاصيل أخرى

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

تحقق هدف البحث.
ثم ذُيل البحث بخاتمة، وفهرست للمصادر والمراجع.

المبحث الأوّل: الرّدود المسكتة في الخطاب العربيّ القديم

حينما أطلق العرب لفظ الخطاب على الكلام المرسل -لفظًا أو كتابةً - جعلوا للكلام الآخر الذي يتجاوب معه فيكمله اسمًا آخر فأسموه (الرّد)، ما يعطي معنى وجوده فعلًا معاكسًا لآخر حادث، فعند العرب: الردّ صرف الشيء ورَجْعُه[1]، كما أسموه الجواب، الذي يعني :"رَدِيدُ الْكَلَامِ، والفِعْل"[2]، واهتموا بشأنه؛ فضمنوه فنيهم: الشّعر والنّثر، ونشأت عندهم أدبيّات له تصفه وتميّزه، ومن ذلك ما أسموه (الرّد المسكت)، الذي شغل حيّزًا في أدبهم جعل ابن أبي عون يؤلّف فيه كتابًا يسميه (الأجوبة المسكتة) وهو "عبارة عن مجموعة من القصص الإخباري الذي يتضمن أخبارًا وأحاديث ونوادر معروضة بشكل أجوبة ذكيّة"[3]، كما نجده في كتب أخرى يحمل أسماء أخرى، مثل ما جاء عند ابن عبد ربه في العقد الفريد حيث أسماه (الجواب القاطع)[4]، ونجد ابن عاصم الغرناطيّ في كتابه (حدائق الأزهار) أفرد له بابًا أسماه: (مسكت الجواب ومفحم الخطاب)[5] كذلك أورده ابن عبد البر قارنًا إياه بالبديهة فأسماه (الأجوبة المسكتة وحسن البديهة)[6]، وغير ذلك يواجهنا في كثير من كتب التّراث العربيّ بذات الطريقة التي في الكتب المذكورة هذي، فنجد الكتّاب يحشدون في هذه الأبواب قصصًا تمثّل هذه الرّدود، التي تلخّص أسماؤها طبيعتَها، فهي (مسكتة) تسهم في حسم الموقف الحواريّ لصالح أصحابها، إذ يستشعر المتلقي قوة أسلوب الرّد ودرجة الحسم فيه؛ فيلوذ بالصمت، وهي (قاطعة) تأخذ بُعد انقطاع الحوار وهو السّكوت نفسه، ثمّ هي (مفحمة) إذ يحسّ المتلقي بقوتها بدرجة الإفحام، كما أنهّا تحتاج لحسن بديهة، فهي رد الأذكياء. وكلّ هذه الأوصاف تحصرها في دائرة مستحسنة أدبيًا تجعلها فنًا من فنون القول الماتع؛ ولذا حق فيها قولهم: "الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللّفظ وبلوغ الحجّة".[7]

وحين نقف عند هذا الخطاب في عصور الأدب العربيّ الأولى نجده في كثير من قصصهم، من ذلك قصّة امرئ القيس بعد وفاة والده التي حملت ردّه المسكت:" ضَيَّعَنِي صغيرًا، وحَمَّلَني دَمَه كبيرًا، لا صَحْوَ اليوم، ولا شُرْبَ غدًا، اليوم خَمْرٌ وغَدًا أمر"[8]، حيث تفيد الرواية أنّ قوله هذا ذهب مثلًا، ثمّ أورد الراويّ أنّه واصل شرب الخمر سبعة أيام[9]، ما يعني أنّه لا جدوى من إخباره، ولا مجال لاتصال حواره، ففي هذا الرّد إصرار على عدم الاكتراث بما حدث، ورغبة في مواصلة الشّرب، ولذا ليس أمام مخبره إلا إنهاء الحوار والانصراف إلى غيره.

ومثل هذا كثير في قصص الأمثال التي خلدت بسبب كونها ردًا مسكتًا مثّل موقفًا حاسمًا في قضية كبيرة، فزعيم مثل الحارث بن عباد حينما أرادوا منه المشاركة في حرب البسوس، لم يطل الحديث حولها، ولم يقدم مسوغات كثيرة، إنّما حزم أمره وحسم موقفه برد حاسم مسكت: "لا ناقة لي في هذا ولا جمل"[10] فاختصر الفكرة، وسخر من حرب دارت بسبب ناقة قتلت، فقتل خلفها كثيرون، ولو شاء لقال: لا ثأر لي فيها، وقُبل منه التعبير وعُذر، لكنّ إشارته إلى النّاقة والجمل فيها لمحة ذكيّة لتفاهة السّبب، وأخرى أذكى حول ترفعه عن الدنايا.

ثمّ استمرت الظّاهرة بعد ذلك، فنجدها في العصر الإسلاميّ تبرز في كثير من المواقف، ومن ذلك القصّة التي حدثت حينما سأل الرّسول – عليه الصّلاة والسّلام- عمرو بن الأهتم عن الزّبرقان بن بدر فقال :واللَّه يا رسول

(1) ابن منظور، لسان العرب، حرف الدّال، فصل الرّاء، مادة: (ردد)، طبعة دار صادر، 1414هـ، ج3، ص173.
(2) المرجع السّابق، حرف الباء، فصل الجيم، مادة:(جوب)، ج1، ص 283.
(3) ابن أبي عوف، الرّدود المسكتة، ط1، تحقيق د. مي أحمد يوسف، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة، 1996م، ص42.
(4) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج4، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1404هـ، ص110.
(5) ابن عاصم الغرناطيّ، حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والحكم والأمثال والحكايات والنّوادر، مطبعة مكتبة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، 1420هـ، 2009م، ص54.
(6) ابن عبد البر، أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، ط1، تحقيق سمير حلبيّ، دار الصّحابة للتّراث، طنطا، 1409هـ، 1989م.
(7) أبو حيّان التّوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، ط1، المكتبة العصريّة، بيروت، 1424هـ، ص380.
(8) الميدانيّ، مجمع الأمثال، ج2، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ص 417.
(9) نفسه.
(10) المفضّل الضّبي، أمثال العرب، ط3، تحقيق إحسان عبّاس، دار الرّائد العربيّ، بيروت، ص 185.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

الله، إنَه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في ناديه، قَالَ الزِّبْرِقَان :والله يا رسول الله، لقد علم منّي غير ما قال، وما منعه أن يتكلّم به إلَّا الحسد، قال عمرو :أنا أحسدك؟ فو الله إنّك لئيم الخال، حديث المال، أحمق الموالد، مُضَيِّع في العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أوّلا، وما كذبت فيما قلت آخرًا، لكنِّي رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت، ووالله لقد صدقت في الأمرين جميعاً، فقال النبيّ– صلّى الله عليه وسلّم–: إنَّ من البيان لسحرًا". (1)

والقصّة حملت كثيرًا من مطالب العلم وشواهده، لكنّ الذي يلينا منها تسويغ عمرو لاختلاف كلامه بالرّضا والغضب، ما يعني أن الغضب مسوّغ للجواب المسكت الذي يحمل ذمًا، ما يشير إلى أنّه من الوسائل الدفاعيّة النفسيّة المقبولة، كما يظهر فيه الملمح البليغ المستحسن الذي يجعله بيانًا ساحرًا في إشارة إلى قوّة تأثيره.

والواقف على شواهد أخرى من السيرة النبويّة يجد فيها ملامح أخرى لطيفة حسم بها رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – مواقف حساسة ومهمة، من ذلك حواره مع الأنصار بعد موقعة (حنين) حيث وجدوا في أنفسهم موجدة بسبب الغنائم، فخاطبهم فقال: "يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني؟ وجِدة وجدتمونا في أنفسكم. ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟، قالوا: بلِ الله ورسوله أمنُّ وأفضل. قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟، ولله ولرسوله المنّ والفضل. قال: أمّا والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتُم وصُدّقتُم، أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم -يا معشر الأنصار- في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟..."(2)

فهذه القصّة تقدّم نموذجًا لهذه الأجوبة، فأسئلته – صلّى الله عليه وسلّم – كانت استدراجيّة، وكانت الرّدود عليها بالتّصديق، ثمّ افترض – عليه الصّلاة والسّلام - أسئلة جاز للأنصار قولها لكنّهم لم يسألوها، وتولى الرّد عنهم، ثمّ ختم ذلك بالرّد الحاسم للموقف على شكل أسئلة موحية لطيفة: "أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألّفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟"(3)، فرضي الأنصار بمنطقه الكريم، وزال ما بنفوسهم."(4).

ويلاحظ كثرة الردود المسكتة في حوارات بعض الشخصيّات البليغة التي أدارت الحياة السياسيّة في مراحل مختلفة من تاريخ العرب، ممن لهم منافسون أقوياء لا يهابونهم في الرّد، مثل معاوية –رضي الله عنه- الذي كان منافسوه من بني هاشم أو الموالين لهم. ومن ذلك ما ورد عن حوار بينه وبين ابن عباس –رضي الله عنهما- إذ قال معاوية : "أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال له ابن عباس: وأنتم يا بني أميّة تصابون في بصائركم."(5).

ولمعاوية حوارات كثيرة مثل هذه ينتصر فيها محاوره، تدلّ على قبوله هذه الرّدود في سياقها الأدبيّ دون إعمال لسلطته حاكمًا، ومن ذلك قصته مع رجل من أهل سبأ، حيث قال له معاوية: "ما كان أحمق قومك حين قالوا: (ربنا باعد بين أسفارنا)، أما كان اجتماع الشمل خيرا لهم؟، فقال اليمانيّ: قومك أحمق منهم حيث قالوا: (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم)، أفلا قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له."(6).

كذلك نجد الظّاهرة في العصر الأمويّ من خلال مباريات الأسواق الأدبيّة التي كانت تدور بين بعض شعراء ذاك العصر، ما عرف بالنّقائض، فهذه الظّاهرة الشّعريّة كانت ترمي في المقام الأوّل إلى إسكات الخصم بالرّد

(1) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1411هـ ،1990م، ص710.
(2) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج18، ط1، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرّسالة، 1421 هـ، 2001م، ص254.
(3) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ص254.
(4) المرجع السّابق، ص255.
(5) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، مرجع سابق، ص91.
(6) المرجع السابق، ص112.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

المضعف لموقفه،" فالشّعراء يذهبون إلى هناك، ويذهب إليهم النّاس ويتحلقون من حولهم، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه".[1]

ومن تلك النّقائض ما تصوّره قصة جرير بن عطيّة مع الرّاعي النّميري، فقد رأى جرير أنّ الرّاعي تطاول عليه فعزم على إسكاته، فهجاه بقصيدته البائيّة التي كسرت أنفة نمير حتى أصبحت مما يخجلهم ويسكتهم، يقول ابن رشيق -في العمدة -: "وممن وضعه ما قيل فيه من الشّعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته بنو نمير، وكانوا جمرة من جمرات العرب، إذا سئل أحدهم: ممن الرّجل؟ فخّم لفظه ومدّ صوته وقال: من بني نمير، إلى أن صنع جرير قصيدته التي هجا بها عبيد بن حصين الرّاعي، فسهر لها، وطالت ليلته إلى أن قال:

فَغُضْ الطّرفَ إنّكَ منْ نُميرٍ فَلا كعبًا بلغتَ ولا كِلابًا

فأطفأ سراجه ونام وقال: قد والله أخزيتهم آخر الدّهر، فلم يرفعوا رأسًا بعدها إلا نكس بهذا البيت"[2].

ويتضح من قول ابن رشيق: "فخّم لفظه ومدّ صوته"، أنّهم كانوا يفاخرون بأصلهم بصوت واثق، وقوله: "فلم يرفعوا رأسًا بعدها إلا نكس بهذا البيت"[3]، أنّهم جمعوا ألسنتهم وتركوا تفخيم أصواتهم وأحسوا بالانكسار، ما يصوّر (الإسكات) الذي أصابهم به جرير في رده على الرّاعي.

كما أنّ الردود المسكتة دخلت من باب الكتابة إلى العصر الإسلاميّ- وما بعده من العصور القديمة - من باب (التوقيعات)، فبينما أنّ المتوقّع أن يجد الخطاب الرسميّ ردًا عمليًا يسهم في حلول المشكلات المعروضة على الحاكم، نجده -أحيانًا- يتجه إلى الإسكات بإبراز نقاط الضّعف في الخطاب الوارد إليه، فمثلًا حينما طلب أحدهم من معاوية أن يعينه في بناء دار بالبصرة، وعلم معاوية كبر مساحتها، قدّر أنّ المال المطلوب كثير عليها، فلم يناقشه في ذلك، وإنمّا ردّ عليه برد مسكت يبرز عدم الرضا عن الطلب، ويقطع التواصل حوله، فقال له: "أدارك بالبصرة أم البصرة بدارك؟"[4].

وإذا كانت هذه النّماذج بعض ما يصلح شاهدًا على الردود المسكتة، فإنّ الملاحظ أنّها تقولبت في صور يمكن أن نصنّفها حسب الآتي:

الرّد السّاخر:

السّخرية وسيلة يلجأ إليها النّاس لهزيمة خصومهم نفسيًا، وقد استخدمت -كثيرًا - في الخطاب العربيّ القديم شعرًا ونثرًا، لأغراض الإسكات أو لغيره، ومن ذلك ما ظهر في شعرهم مثل قول عمرو بن كلثوم:

نَزلْتُم منزلَ الأضيافِ منّا فأعجَلنا القِرى أنْ تَشتمونَا

قَـرينـاكم فَعجّلنا قِراكم الحواشي قَـبيلَ الـصّبحِ مِـرداةً طحـونَا[5]

فهنا تظهر المفارقة السّاخرة بين نزولهم منازل الأضياف وما وجدوه من قرى لم يكن سوى الحرب. وهذه صورة تظهر العدو ضعيفًا، وتظهر قوم الشّاعر في موضع القوي المتمكّن.

ومما ظهر عندهم في الرّدود المسكتة ما جاء في قصة طرفة بن العبد مع أحد الشّعراء (يقال إنّه المسيّب بن علس، ويقال المتلمّس)[6]، التي تقول: "وكان طرفة يلعب مع الصبيان ويتسمّع، فأنشد المتلمّس:

وَقَدْ أتَنَاسَى الهمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مكدمِ

(1) شوقي ضيف، تاريخ الأدب (العصر الإسلاميّ)، ط7، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص 242.
(2) ابن رشيق القيروانيّ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ج1، ط1، تحقيق عبد الحميد هنداويّ، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، بيروت،2001م، 1422هـ، ص38، ص 39.
(3) نفسه.
(4) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، مرجع سابق، ص 288.
(5) الزوزنيّ، شرح المعلّقات السّبع، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الطّلائع للنّشر والتّوزيع، القاهرة،2009م، ص182، ص183.
(6) الميدانيّ، مجمع الأمثال، مرجع سابق، ص93.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

كُمَيْتٍ كَنَازِ اللَّحْمِ أوْحَمِيَرية الحواشي مُـــــوَاشِكَة تَنْفِى الحَصَى بِمُلَثَّمِ
كأنّ على أنْسَائِهَا عِذْقَ خَصْبَةٍ تَدَلّى مِنْ الكَافُورِ غَيْرَ مُكَمَّمِ

و(الصّيعريّة) سِمَة تُوسم بها النوق باليمن، فلما سمع طرفة البيت قال: (استنوق الجمل)، قالوا فدعاه الشّاعر وقال له: أخرج لسانك، فأخرجه فإذا هو أسود، فقال: ويل لهذا من هذا."[1]

فهنا قدّم طرفة نقدًا هزم به الشّاعر، وجعل منه موضع سخرية، إذ نبه السامعين إلى الخطأ في استخدام سمة النوق للجمل، بتعبير ناقد ساخر لاذع: (استنوق الجمل)، الأمر الذي أسكته فلم يستطع تسويغ مقاله، والدّفاع عن استخدامه لهذه الكلمة، فحمله إلى ترك موضع النّقد إلى موضوع آخر يشغل به النّاس ويصرفهم من موضع هزيمته.

وهذه القصة التي تعرض شاهدًا يثبت خطأ الاستخدام لكلمة من متعلّقات النوق في وصف الجمل، يمكن مراجعتها – نقديًا- بالدفع بصعوبة التسليم بجهل القائل –أيًا كان من الشّاعرين- أو جهله بمرمى استخدامه، لكنّ هذا الدفع لا يصمد أمام قوة الرّد التي لم تترك مساحة للحوار النقديّ، فطبعت الموقف بخطأ الاستخدام، وسخرت منه.

وإذا تأملنا ما وراء النص ووقفنا عند اختلاف الرواة حول القائل، وجدنا ما يمكن أن يشير إلى أنّ الحدث غير ثابت على أحد الشّعراء، فكأنّما تخلى قائله عنه، أو زوّر الرواة الموقف إبعادًا له عن صاحبهم، ما يقلل حدته في مجتمع يستحي من الانكسار ويحتفي بالانتصار، وهذا امتداد لأثر الرّد الذي أطلقه طرفة.

الرّد المفنّد:

يقصد به ما يتعمد فيه صاحبه دحض حجج الخصم والانتصار عليه، وهذا ما نجده عند العرب القدامى في مواقف كثيرة، ففي الشّعر -مثلًا –نجد في عصر ما قبل الإسلام منافساتهم بسوق (عكاظ) الذي أخذ اسمه من طبيعة ما يدور فيه من اعتراك وتفاخر، وقهر للخصوم بالحجج[2] ، فقد كانوا يؤمونه مركزًا للأدب والنّقد فيعرضون فيه بضاعتهم الشّعرية؛ ليحققوا هذه الأهداف.

ومن القصص التي تستوقفنا بسوق عكاظ قصة النّابغة مع حسان بن ثابت التي تعطي نموذجًا لهذا الرّد، فحسان حينما غضب لتفضيل الخنساء عليه، أطلق قولًا تحدى فيه النّابغة فقال: "والله أنا أشعر منك ومن أبيك"[3]، وهذا قول يمكن أن ينطلق فيعم ديار العرب إن لم يجد دفاعًا يوقفه، فلجأ النّابغة لأسلوب الجواب المسكت ضمن حوار نقديّ منطقيّ فعرض شعر حسان وفنّده، وعرض شعره مفاخر: " يا بن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

فإنّكَ كاللّيلِ الذي هوَ مُدركي وإنْ خِلتَ أنّ المنتأى عنكَ واسعُ
خَطاطيفُ حُجنٌ في حبالٍ متينةٍ تمُـــدّ بهـــــا أيـــدٍ إليـــك نـــوازعُ[4]

وكان من الممكن أن تنتهي الرواية إلى هنا فتصلنا الحادثة، ونعرف المخطئ من المصيب، ولكنّها حملت بعدًا يرمي إليه الحوار هو الإسكات الذي يصحبه انتصار الملقي وانكسار المخاطب، فقال الرّاوي: "فخنس حسان"[5].

والشّاهد هنا يوضّح أنّ هذه الرّدود تحسب لصالح النّاقد، فالنّقد لم يكن قد وصل مراحله التي تهتم بمنطقيّة وحجيّة ما يقال، فبعض ما يرمي إليه الانتصار الذي يعبّر عنه – أحيانًا – الإسكات المتضمّن في هذه الرّدود، ولولا روح الإسكات المسيطر على هذا المنبر النّقدي، كان من الممكن أن يرى الحاضرون -آنذاك– ضعفًا بأبيات النّابغة هذي كالذي رآه ابن قتيبة -لاحقًا - في قوله:

خَطاطيفُ حُجنٌ في حبالٍ متينةٍ تمُـــدّ بهـــــا أيـــدٍ إليـــك نـــوازعُ

(1) الميدانيّ، مجمع الأمثال، مرجع سابق، ص93.
(2) سعيد بن محمّد المعافريّ، كتاب الأفعال، ج 1، تحقيق حسين محمّد محمّد شرف، مؤسسة دار الشّعب للصّحافة والطبّاعة والنّشر، القاهرة، (د، ت)، ص273.
(3) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني، ج11، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د، ت)، ص 9.
(4) أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني، مرجع سابق، ص9.
(5) نفسه.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

فقال: "رأيت علماءنا يستجدّون معناه، ولست أرى ألفاظه جيادًا ولا مبيّنةً لمعناه".[1]

الرّد اللّطيف:

ويمثّله ما أورده ابن قتيبة في (عيون الأخبار) فيما أسماه (التلطّف في الكلام والجواب وحسن التّعريض)، وقد ذكر في ذلك شواهد منها: "عن الأصمعيّ، قال: ترك عقيل عليًّا وذهب إلى معاوية؛ فقال معاوية: يا أهل الشّام، ما ظنّكم برجل لم يصلح لأخيه؟ فقال عقيل: يا أهل الشّام إنّ أخي خير لنفسه وشرّ لي، وإنّ معاوية شرّ لنفسه وخير لي"[2]، فواضح من هذا الرّد حسن التّعريض حيث جاء في ثوب لطيف يستحسنه المتلقي، فالمقام لم يكن مقام تنابز وهجاء، ولكنّه مقام مخاشنة لطيفة أقرب للمزاح، فعقيل كان مواليًا لمعاوية، ولا يعقل أنّ معاوية قصد إساءته بسبب تركه أخيه واللّحاق به، وما يعضّد هذا الرأي القصّة الثانية التي أوردها ابن قتيبة في ذات الباب عنهما، حيث قال معاوية -مشيرًا إلى عقيل-: "يا أهل الشّام، إنّ عمّ هذا أبو لهب؛ فقال عقيل: يا أهل الشّام، إنّ عمّة هذا حمّالة الحطب"[3]، فالسياق يوضح روح المزاح بين الاثنين، فمعاوية يعلم أن عمومة أبي لهب لا تنقص من قدر عقيل، فأبو لهب عم الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – أيضًا، ويعلم أنّ عمته أم جميل زوج أبي لهب، من وصفت بحمالة الحطب في ذات السورة التي ذُكر فيها أبو لهب.

الرد المُخَلّص:

وهذا يأتي في مقام التّخلّص مما يمكن أن يجر على صاحبه مشكلة، ومن ذلك قصّة أبي تمّام مع الكنديّ، وقد أنشد أحمد بن المعتصم قوله:

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ في حِلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ
الحواشي

فقال له الكندي: "الأمير فوق ما وصفت"، فردّ عليه أبو تمّام بقوله:

لا تُنكروا ضَربي له مَنْ دونَه مثلًا شَرودًا في الوَغَى والباسِ
الحواشي
فاللهُ قدْ ضَربَ الأقلّ بنورِه مثلًا مِنْ المِشكاةِ والنّبراسِ[4]
الحواشي

وقد أورد ابن بسّام القصّة فوصفها بغريب البديهة، ما يشير إلى أنّها تحتاج لبديهة يستغرب أن تكون عند أبي تمام، يقول ابن بسام: "ومن غريب البديهية خبر حبيب، فتعجب من بديهته يومئذٍ لأنّه كان رجلًا مصنعًا لا يجب أن يكون هذا في طبعه".

ولو قرأنا القصّة من زاوية صحتها، أو عدم صحتها، فإنّ الواضح أنّها ساقت لنا ما يفيد أنّ هذا الشّعر استحسن ردًا مسكتًا مخلّصًا، يشير إلى بديهة حاضرة وسريعة.

الرّد الحكيم:

يعرّف البلاغيون هذا الرّد باسم (أسلوب الحكيم)، ويعرفونه بكونه: "تلقّي المخاطب بغير ما يترقّبه، إمّا بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإمّا بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنّه كان ينبغي أن يسأل هذا السّؤال أو يقصد هذا المعنى"[5]، وعلى أيّ حال من أحوال الإشارة أو مقصدها، فإنّ هذا رد مسكت ينهي الحوار أو يصرفه إلى غير المراد من الخطاب المرسل، وقد أوجز السكّاكيّ في تعريفه فأوضح صرفه للكلام لغير الوجهة المرادة فقال عنه:" تلقّي المخاطب بغير ما يترقب، أو السّائل بغير ما يتطلب"[6]، فذلك يسكت المخاطب إذ ليس من الكياسة أن يشار إلى الإنسان صاحب الهمة بكونه مظنّة خير فيصرّ على ما يصوّره من أهل الشّر، وقد مثّل لذلك ابن حجة الحمويّ فقال: "ومنه قول القبعثريّ للحجاج لما توعده فقال: لأحملنّك على

(1) ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ج1، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ، ص69.
(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1418 هـ، ص214، ص 215.
(3) نفسه.
(4) المرزبانيّ، الموشّح في مآخذ العلماء على الشّعراء، ط1، تحقيق محمد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1415هـ، 1995م، ص366.
(5) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ج1، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، (د، ت)، ص182.
(6) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت،1987م، 1404هـ، ص 327.

ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023 العدد (24) يونيو 2023

الأدهم والمراد به القيد، فرأى القبعثريّ أن الأدهم يصلح للقيد والفرس، فحمل كلامه إلى الفرس، وقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فصرف الوعيد بالهوان إلى الوعد بالإحسان"(1). ثمّ علّق الحمويّ على موقف المخاطب فقال: "وفي هذا ما لا يخفى على المتأدّب من حسن التلطّف وشدة الباعث على فعل الخير، إذ لا يليق بمن له همة عالية أن يقال له: مثلك من يفعل الخير، فيقول: لا بل أفعل الشّر".(2)

ففي هذا الرّد حكمة تتجلى في صرف القول عن مراده المضر إلى وجهة لا ضرر فيها، وفيه يظهر أسلوب يشير إلى تلطّف صاحبه، ولذلك ينهي الحوار لصالحه.

وهكذا، فإنّ النّاظر للرّدود المسكتة عند العرب في عصورهم القديمة، يجدها استخدمت في مواقف كثيرة لمعالجة قضايا مختلفة، فجاء بعضها معالجًا للنّقد الأدبيّ ممتدًا إلى التّأثير في مكانة الشّاعر اجتماعيًا، كما كان في شأن رد طرفة مع المتلمّس أو المسيّب بن علس، وهنا ظهر الرد المسكت في ثوب ساخر، أو ربّما جاء الرّد لدحض حجة الآخر، رغبة في النّصر وهزيمة المحاور، وهذا ما فعله النّابغة الذبيانيّ مع حسّان بن ثابت، وقد يأتي في شكل حوار في مقام أنس تقف خلفه مواقف سياسيّة، فيعبّر عن ذلك بلطف، كما في حوار معاوية بن سفيان وابن عبّاس -رضي الله عنهما- كما أنّه عبّر عن الذكاء في المواقف الحرجة، فكان مخلّصًا لصاحبه، كالذي كان في شأن أبي تمّام والكنديّ، وقد استخدم – كذلك – في قالب أسلوب الحكيم، فكان سببًا في صرف المحاور إلى غير ما يريد، فحقق لصاحبه كسبًا وصرف عنه ضررًا.

وهكذا تتضح القوالب التي حملته، وبعض الأغراض التي استخدم فيها.

المبحث الثّاني: الردود المسكتة في قصص بهلول المجنون

خصّ الكتّاب العرب بعض الفئات الاجتماعيّة بالتّأليف، فنجد منهم من كتب عن الأذكياء، ومن كتب عن الحمقى والمغفلين، ومن كتب عن الظّرفاء، ومن كتب عن الطّفيليين، وغيرهم، وكان لعقلاء المجانين نصيب من ذلك، يقول أحمد أمين: "وقد أبدع في هذا الباب ونحوه طائفة من الممرورين وعقلاء المجانين، وهم طائفة من النّاس خفيفو الرّوح والعقل، أو متصوّفة مدلهون، أو فلاسفة شاردون تعتريهم لوثة من شذوذ، فيعبث بهم النّاس في أوقات لوثتهم، فتصدر عنهم الأجوبة المسكتة أو الأقوال الظّريفة، وقد عني مؤلفو الأدب بهذا النّوع من النّاس عناية فائقة فوضعوا فصولًا من كلامهم في كتب الأدب تحت عنوان (أخبار الممرورين والمجانين)، أو ترجموا لمشهوريهم أمثال أبي العبر وبهلول، بل ألّف بعضهم كتبًا خاصّة فيهم كما فعل النّيسابوريّ صاحب التّفسير إذ ألّف كتابًا أسماه (عقلاء المجانين) ترجم فيه لمشهوريهم وذكر ملحهم"(3)، و من أولئك ، (بهلول المجنون) ، تلك الشّخصيّة التي حملت أخبارها كثير من كتب التّراث العربيّ، وصورتها حكيمًا زاهدًا يحسن الخطاب في الزّهد، وأديبًا وواعظًا بليغًا، قال عنه الكتبيّ: "أبو وهيب الصيرفيّ المجنون، من أهل الكوفة وكان من عقلاء المجانين له كلام مليح ونوادر وأشعار، استقدمه الرّشيد - أو غيره - من الخلفاء ليسمع كلامه، توفي في حدود التّسعين والمائة"(4).

ورغم اشتهاره بلقب المجنون، نجد ابن كثير يعرفه بالْمُوَلَّهُ العاقل، ففي حديثه عن هارون الرّشيد ذكر بهلولًا فقال:" وقد لقيه بهلول الْمُوَلَّهُ العاقل فوعظه موعظة حسنة..."(5)، ما يوضّح أنّ صفة الجنون لم تكن بمعنى فاقد العقل، فهي من باب التعبير عن غرابة ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وهي ظاهرة انتشرت في بعض المجتمعات العربيّة القديمة أشار إليها ابن خلدون في (المقدّمة)، وبين انتشارها في كثير من المجتمعات العربيّة القديمة(6)، فقد ظهرت بعض الشّخصيّات في صور أربكت النّاس في شأنها فجعلتهم يصفونها بصفتين متناقضتين: العقل والجنون معًا، ما جعلها موضع استغراب مع قبول، لا سيما في النّقد الاجتماعيّ والوعظ، وقد

(1) ابن حجة الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت-دار البحار، بيروت، 2004م، ص 258، ص259.
(2) ابن حجة الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، مرجع سابق ص259، ص258.
(3) أحمد أمين، فيض الخاطر، ج7، مؤسسة هنداويّ للتّعليم والثّقافة، (د، ت)، ص188.
(4) محمّد بن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، ط1، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، دار صادر، بيروت، 1973م، ص 229.
(5) ابن كثير، البداية والنهّاية، ط1، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركيّ، دار هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، 1424هـ،2003م، ص 164.
(6) ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ط2، دار صادر، بيروت، 2009م، ص89.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

حظيت أخباره باهتمام بعض الأئمة مثل ابن الجوزي[1] وابن كثير[2] ، كما أنّه يبدو ممن اتخذوا موقفاً متزنا بين التشيّع وحفظ حقوق الصحابة -رضوان الله عليهم - فقد روي أنّ صباح الوزان الكوفي قال: "لقيت بهلولاً يوماً فقال لي أنت الذي يزعم أهل الكوفة أنك تشتم أبا بكر وعمر؟ فقلت: معاذ الله أن أكون من الجاهلين. قال: إياك يا صباح فإنهما جبلا الإسلام وكهفاه ومصباحا الجنة وحبيبا محمد - صلى الله عليه وسلم- و ضجيعاه، وشيخا المهاجرين وسيداهم"[3]

وشخصيّة بهلول مع ما تحمله من هذه السّمات، نجد فيها بعدًا دراميًّا يهيئ المتلقّي للرّسالة، تظهر في هيئته، أو في صناعة الحدث، من ذلك ما روى عنه أحدهم فقال: "رأيت بهلولًا في بعض المقابر قد دلّى رجله في قبر يلعب بالتراب فقلت له: ما تصنع هنا؟ قال: أجالس قومًا لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني". [4]

ففي هذه القصّة يهيئ بهلول المتلقي لرسالته، لافتًا نظره بمؤثّر مرئي، فمدّ الرجلين داخل القبر ليس أمرًا طبعيًا يمر عليه النّاظر دون توقف وتأمل، ما يجعل له أثرًا عليه.

وربّما ظهر البعد الدّراميّ من خلال ما يهيئه له المجتمع من مواقف لصنع أحداثه، من ذلك القصّة التي تقول: "مرّ بهلول بقوم في أصل شجرة وكانوا عشرة نفر فقال بعضهم لبعض تعالوا نسخر من بهلول، وسمع بهلول ما قالوا فجاءهم...".

فهنا يحدّد المتلقون هدفهم وينتظرون ما يدفع به بهلول في هذا المقام، ويقبل بهلول عليهم ليلبي طلبهم، ويستجيب لأداء الدور المطلوب منه.

وإذا نظرنا لخطاب بهلول نجد كثيرًا ممّا يعني الدّرس الأدبيّ شعرًا ونثرًا، منه الرّدود المسكتة التي تتجلّى في كثير من قصصه، فتظهر في أشكال معبّرة عن رسائل عمد إلى إطلاقها لمعالجة بعض المظاهر الاجتماعيّة السّالبة، يمكن أن نجملها في الآتي:

النّقد الاجتماعيّ:

اتخذ بهلول الزّهد وسيلة للعبادة، وجعل ينظر للحياة من زاوية تريه النّاس غافلين عن آخرتهم منغمسين في دنياهم، فهو يحس بوضاعة الدنيا، وعدم إدراك النّاس لهذا الأمر، ولذلك أتت أجوبته معبّرة عن هذه الفكرة المسيطرة عليه، من ذلك أنّ أحدهم رآه بالمقابر فروى ما دار بينهما من حوار، إذ سأله- بدايةً- عمّ يفعل، فقال: "أجالس قومًا لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني. فقلت: قد غلا السعر فهل تدعو الله فيكشف؟ فقال: والله ما أبالي لو حبة بدينار، إنّ الله أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا". [5]

ففي هذا الحوار يوجه بهلول نقدًا للسلوك الاجتماعيّ المتمثّل في الأذى من خلال المجالسة والغِيبة بعد الغَيْبة، ويرى أن هذا المجتمع خير منه مجتمع الموتى لتميزه بعدم وجود الظّاهرة السّالبة هذه فيه، لكن محاوره لم ييأس من رجاء في تجاوبه بالإسهام في حل المشكلات التي يعاني منها المجتمع بدعائه أن يرفع الله الغلاء، فكان الجواب المسكت المعبّر عن اختلاف اهتمامات بهلول عن اهتمامات مجتمعه والمضمّن نقدًا لسلوك المجتمع: "والله ما أبالي لو حبة بدينار، إنّ الله أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا"، وبهذا الرّد حقق بلاغة الإيجاز، وأحسن رسم صورة المفارقة بعدم اهتمامه بغلاء يصل فيه سعر الحبة إلى دينار، ثمّ قابل أداء العبادة كما أمر الله، بالرزق كما وعد الله.

والنّاظر لهذا الحوار يجد صراع ثنائيّة الحياة والموت ما بين الاستغراق في الحياة المنسي لما بعدها، والانتباه للموت لدرجة الاستعجال بزيارة الموتى، وفي هذا الصّراع مفارقة تقتضي وقفة أدركها بهلول؛ فنبّه لها محاوره برد مسكت يدعو للتّأمّل فيه، والانصراف لغيره، فهو غير قابل للمنطق واستدعاء العقل، فما القول مع رجل يرى أن (يجالس) قومًا موتى؟، لكن رسالة الرّد جاءت لتنبه الغافلين، ولتنتقد السّلوك الاجتماعيّ النّاجم عن تلك الغفلة: "إنّ الله أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا".

(1) ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، ط1، دار ابن حزم - بيروت ١٩٩٧ م، ص98.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ص 164.
(3) النيّسابوريّ، عقلاء المجانين، ط1، تحقيق عمر الأسعد، دار النّفائس، 1987م، 1407هـ، ص 139.
(4) نفسه.
(5) النيّسابوريّ، عقلاء المجانين، ص 139.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

النّقد السّياسيّ:

قد تكون الحالة الانسحابيّة التي تسيطر على بعض الزّهاد وسيلة تعبير عن عدم رضا عن الأوضاع السّياسيّة في عصورهم، ولذلك فليس من المستبعد أن يكون من أسباب حالة بهلول ما عاشه في زمنه من حالة سياسيّة غير مرضية له، فآثر الابتعاد عنها، لكنّه لم يترك نقدها، وقد حملت قصصه ما يشير إلى ذلك، فيروى أنّه قال للرّشيد: "يا أمير المؤمنين فكيف لو أقامك الله بين يديه فسألك عن النّقير والفتيل والقطمير؟ قال: فخنقته العبرة، فقال الحاجب: حسبك يا بهلول قد أوجعت أمير المؤمنين، فقال: الرّشيد دعه، فقال بهلول: إنّما أفسده أنت وأضرابك، فقال الرّشيد: أريد أن أصلك بصلة، فقال: بهلول ردها على من أخذت منه، فقال: الرّشيد فحاجة. قال: ألّا تراني ولا أراك"[1].

وفي هذا الحوار تظهر الأجوبة المسكتة قاطعة حاسمة معبّرة عن نقد سياسيّ لاذع، فهو ينتقد صرف المال بأسلوب وعظيّ، مذكّرًا بيوم الحساب، ثم يتوجّه بنقده لما يمكن أن تسببه البطانة من فساد فيقول: "إنمّا أفسده"، متعاملًا مع ذلك بوصفه حقيقة. وفي هذا نقد مباشر قاس يحسب لصالح الرّشيد، حيث يبدو متقبلًا للنّصح رغم قسوته، وخروجه عن المألوف.

ثمّ يظهر الرّد المسكت الخاتم للحوار الذي يعبّر عن قمة الرّفض، ليكمل صورة النّقد السّياسيّ القاسي التي سار عليها حواره مع الرّشيد فجعل حاجته ملخصة في قوله: "ألا تراني ولا أراك".

الوعظ الدينيّ:

منذ بداية الدّعوة الإسلاميّة تمثّل الخطاب الإسلاميّ في صور أدبيّة تناسب المتلقين للدّعوة الإسلاميّة؛ ولذلك كان القرآن معجزة بيانيّة مع ما له من مضمونات مقدّسة أخرى، كما أنّ خطاب الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- جاء في قوالب نثريّة معهودة عند العرب، وعلى هذا النّهج سار خطاب الدّعوة من بعده.

وعلى نمط الخطاب الدعويّ القديم سار بهلول، لا سيما في استخدامه الخطاب الموجز الذي تمثّله عنده الأجوبة المسكتة في الخطاب الوعظيّ، ومن ذلك ما رواه سفيان بن عيينة، فقال : " قلت لبهلول المجنون عظني ، فقال: الملوك، هذه قصورهم وهذه قبورهم"[2].

ففي هذه الإجابة مشهد ينتقل بسرعة من القصور إلى القبور، فيشير لواحدة من أجمل صور الدنيا وأحبّها إلى النّفوس، مقابل القبر الذي يمثّل نهايتها برمزية الموت التي تأباه النّفوس، فتجلّت في هذا المشهد الرّسالةُ ذات الأثر القوي في النّفوس.

وفي هذا الرّد استخدم بهلول المؤثّر المرئيّ، ففي كلمة (هذه) إشارة إلى أنهّم كانوا أمام مشهد ظاهر له – خيالًا أو حقيقة – يُظهر الدنيا في صورة من صور زينتها، ثمّ ينتقل إلى نهايتها؛ فتبرز الصورة الوعظيّة التي يرمي من ورائها إلى دفع النّاس لاحتقار الدنيا والإقبال على الآخرة، فيعزّز ذلك المشهد برد حاسم قاطع: (هذه قصورهم، وهذه قبورهم).

السّخريّة من الأحداث:

السّخرية ملمح أدبيّ يلجأ إليه الأديب للتّعبير عن مشاعر سالبة يحشدها لتقليل قدر الآخر، وهي من الأساليب الأدبيّة المؤثّرة في نفوس المتلقين، ولذلك نجدها في ردود بهلول في سياق يحمل رسائل مستبطنة، فحينما يريد إرسال رسالة يشير فيها إلى موقفه من المجتمع يضمنها هذه الإشارات، من ذلك ما يظهر في قصته مع أحد الأمراء الكوفة التي تقول: " ولد لإسحق بن محمد الصباح بنت فساءه ذلك وامتنع من الطعام والشراب فدخل عليه بهلول وقال أيها الأمير ما هذا الجزع والحزن جزعت لخلق سوى وهبه الملك العلي أيسرك أن يكون مكانها ابن وأنه مثلي فضحك الأمير ودعا بالطعام والشراب وأذن للناس بالدخول عليه للهناء".[3]

فهنا يستخدم السخريّة فتبدو من نفسه، ولكنّها تستبطن سخريّة من موقف المجتمع منه، فهو يعلم نظرة الأمير له، التي دفعته لقبول بنته لأنّها خير من ولد مثل بهلول، واستخدام هذه المقارنة تطبيقًا على نفسه فيه ما لا يكون من مجنون بقدر ما يكون من شخص ساخر يستطيع إحكام رّسالة مناسبةً للمقام، مستفيدًا من مؤثرات الخطاب.

(1) النّيسابوريّ، عقلاء المجانين، مرجع سابق، ص140.

(2) الحسن بن إسماعيل الضرّاب، عقلاء المجانين والموسوسين، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار بشائر للنّشر والتوزيع، بيروت، 1424هـ ، 2003م، ص24.

(3) أبو إسحاق الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1429هـ،2008م، ص164.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

التّواصل الطّريف:

الطّرفة مظهر من مظاهر الخطاب التّواصليّ بين النّاس؛ فبها تصل رسائل كثيرة، وفيها تتجلّى بعض الملامح الاجتماعيّة، وتمثّل – أحيانًا- متنفسًا عن مكبوت المجتمعات الذي لا تستطيع الوسائل الأخرى التّعبير عنه، وهي مقبولة للنّفوس، ومصدر إمتاع لها.

تحمل قصص بهلول طرفًا كثيرة، تنتهي بردود مسكتة ذات أبعاد أدبيّة معبّرة، من ذلك قصته مع الرّشيد التي تقول: "حجّ الرشيد فذكر بهلولًا حين دخل الكوفة فأمر بإحضاره فقال ألبسوه سوادًا وضعوا على رأسه قلنسوة طويلة وأوقفوه في مكان كذا. ففعلوا به ذلك، وقالوا إذا جاء أمير المؤمنين فادع له، فلمّا حاذاه الرّشيد رفع رأسه إليه، وقال يا أمير المؤمنين أسأل الله أن يرزقك، ويوسّع عليك من فضله، فضحك الرّشيد وقال: آمين، فلمّا جازه الرشيد دفعه صاحب الكوفة في قفاه وقال: أهكذا تدعو لأمير المؤمنين يا مجنون، قال بهلول: اسكت ويلك يا مجنون فما في الدنيا أحبّ إلى أمير المؤمنين من الدّراهم، فبلغ ذلك الرّشيد فضحك وقال: والله ما كذب".[1]

وفي هذه القصّة يظهر الرّد الطّريف في مسرح هيئ لذلك، فظهور بهلول بالثياب السّود مع قلنسوة طويلة، منظر مضحك وإن قصد لغير الضحك، ووجود بهلول نفسه في هذا المقام فيه طرفة؛ فهو شخصيّة طريفة من الذين لا يتوقع وجودهم في مناسبات الخلفاء، لكنّ الرّشيد أراده لذاته إذ يتوقع عنده ما لا يجده عند غيره، وبهيئته تلك التي اختارها بنفسه وكأنّه يقوم بدور المخرج مع شخصيّاته الدّراميّة. وبهذه الطريقة انسابت الأحداث، فتبعها جوابه المسكت الذي حمل الطّرفة النّاقدة: "فما في الدنيا أحبّ إلى أمير المؤمنين من الدّراهم".[2]

وهكذا نلاحظ أنّ بهلولًا استخدم الأجوبة المسكتة في خطابه، واعتمد عليها في رسائله المختلفة، مهيّئًا لها المتلقي بمؤثّرات مختلفة، أسهمت في وصولها، وقد حملت ألوانًا من التعبير تتراوح بين النّقد الاجتماعيّ والنّقد السّياسيّ، والوعظ الدينيّ والسّخريّة والطّرفة، ما يشير إلى فاعليّة هذا الضّرب من الرّدود ودوره في إيصال الخطاب، ودرجة تأثيره.

الخاتمة:

النّاظر في الرّدود المسكتة عند العرب يجدها فنًا مكتمل الأركان، أدّى رسالته كاملة في مجتمع يحتفي بجميل الكلم وجيّد الأسلوب؛ فقد حقق بينهم روح الإمتاع والمؤانسة، فضلًا عن الحسم والنّصر، كما يلحظ أنّه جاء في قوالب مختلفة، فتارة يلبس لبوس السّخرية، وأخرى الطّرفة، وربمّا جاء في ثوب الإفحام أو التخلّص، أو الحكمة؛ فلأصحابه قدرة على توظيفه حسب الموقف الماثل أمامهم؛ فهو فن مالكي نواصي الكلم، القادرين على توظيفه بأقل كلمات، وأبلغ عبارات.

لكنّ الملاحظ أن معظم من كتب في هذا الفن اكتفى بحشد الشواهد تحت أبواب تحميل كلمات تصفه، فيها إشارات مجملة، وهذا ما جعل الباحث يأخذ من ذلك الإرث ما يصلح لتوضيح الموضوع ويصنفه تحت عنوانات توضّحها، ليسهل تمييزها؛ فتظهر رسالتها الأدبيّة ثمّ نظر في ردود بهلول المجنون وتوظيفه لها في رسائله المختلفة، فاستنتج الآتي:

- عرفت الردود المسكتة عند العرب منذ فجر الأدب العربيّ، وقد استخدموها في مواضع مختلفة لتحقيق الإسكات، والحسم، والقطع، والإفحام، فهي من وسائل إنهاء الحديث.
- جاءت الرّدود المسكتة في قوالب مختلفة مثل: السّخريّة، والطّرفة، والتفنيد، والتخلّص، والحكمة، وهذه أساليب تناسب مثل هذه الرّدود.
- حققت الرّدود المسكتة رسائل اجتماعيّة كثيرة، وكانت تنتهي بانتصار صاحبها، وجعله في موضع إعجاب من المتلقين؛ لما يظهر فيها من بديهة وبلاغة.
- وظّف بهلول المجنون الرّدود المسكتة في رسائله الاجتماعيّة المتمثّلة في: النّقد الاجتماعيّ، والنّقد السّياسيّ، والوعظ الدّينيّ، والسّخريّة من الأحداث، والتّواصل الطّريف.
- هيأت طبيعة بهلول المتلقي لقبول رسائله، رغم اختلاف الفئات الاجتماعيّة للمتلقين التي تراوحت من العامّة إلى علية القوم.

(1) النّيسابوريّ، عقلاء المجانين، مرجع سابق، ص 142.
(2) النّيسابوريّ، عقلاء المجانين، مرجع سابق، ص 142.

DOI: https://doi.org/10.33193/JEAHS.24.2023.360
ISSN Online: 2709-071X
ISSN Print: 2709-0701
مجلة العلوم التربوية والإنسانية
Journal of Educational and Human Sciences
www.jeahs.com
Volume (24) June 2023
العدد (24) يونيو 2023

إنّ ما لاحظه الباحث من شح في المادّة المحللة لهذه الرّدود، جعله يرى أهمية تقديم مزيد من الدّراسات في هذا الموضوع؛ ولذا فيوصي بدراسة الرّدود المسكتة في الخطاب العربيّ الحديث.

المصادر المراجع

1- أبو إسحاق الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1429هـ،2008م
2- أبو الفرج الأصفهانيّ، الأغاني، ج11، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د، ت).
3- أبو حيان التّوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، ط1، المكتبة العصريّة، بيروت، 1424هـ.
4- أبو هلال العسكريّ جمهرة الأمثال، مج1، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، ط2، دار الجيل، 1408هـ، 1988م، (د،ت).
5- ابن أبي عوف، الرّدود المسكتة، ط1، تحقيق د. مي أحمد يوسف، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة، (د، ت).
6- ابن بسّام، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج 7، ط 1، تحقيق إحسان عبّاس، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، (د، ت).
7- ابن حجة الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار، بيروت، 2004م.
8- ابن عاصم الغرناطيّ، حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والحكم والأمثال والحكايات والنّوادر، مطبعة مكتبة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، 1420هـ ،2009م.
9- ابن عبد البر، أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، ط1، تحقيق سمير حلبي، دار الصحابة للتّراث، طنطا، 1409هـ - 1989م.
10- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1404 هـ.
11- ابن رشيق القيروانيّ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ج1، ط1، تحقيق عبد الحميد هنداويّ، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، بيروت،2001م، 1422هـ.
12- ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ج1، دار الحديث، القاهرة 1423هـ.
13- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1418هـ.
14- ابن منظور، لسان العرب، ط3، ج1، ج3، دار صادر، بيروت،1414هـ.
15- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج18، ط1، تحقيق شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط1، مؤسسة الرّسالة، 1421 هـ، 2001.
16- الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج3، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1411هـ، 1990م.
17- الحسن بن إسماعيل الضرّاب، عقلاء المجانين والموسوسين، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار بشائر للنّشر والتوزيع، بيروت، 1424هـ، 2003م.
18- الزّوزني، شرح المعلّقات السّبع، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطّلائع للنّشر والتّوزيع، القاهرة،2009م.
19- النّيسابوريّ، عقلاء المجانين، ط1، تحقيق عمر الأسعد، دار النّفائس، 1987م، 1407هـ.
20- المرزبانيّ، الموشّح في مآخذ العلماء على الشّعراء، ط1، تحقيق محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1415هـ، 1995م.
21- المفضّل الضّبيّ، أمثال العرب، ط3، تحقيق إحسان عبّاس، دار الرّائد العربيّ، بيروت، (د، ت).
22- الميدانيّ، مجمع الأمثال، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، ج2، دار المعرفة، بيروت، (د، ت).
23- السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت،1987م، 1404هـ.
24- سعيد بن محمد المعافريّ، كتاب الأفعال، ج 1، تحقيق حسين محمّد محمّد شرف، مؤسسة دار الشّعب للصّحافة والطّباعة والنّشر، القاهرة، 1395 هـ، 1975م.
25- شوقي ضيف، تاريخ الأدب (العصر الإسلاميّ)، ط7، دار المعارف، مصر، ((د، ت)).
26- عبد العزيز عتيق، علم البديع، ج1، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، (د، ت).
27- محمّد بن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيات، ط1، تحقيق إحسان عبّاس، ج1، دار صادر، بيروت، 1973م.